# أطوار الأدب التونسي الحديث

بقلم ابو القاسم محمد كرّو

## مقدمة تاريخية :

يمتد عمر الادب الحديث في تونس الى مائة واربعين سنة خلت . وعلى التحديد ، كانت بدايته عام ١٨٣٠ حين شرعت تونس تستيقظ على أزيز المدافع والاحتلال الفرنسي للجزائر .

وما هي الا سنوات قليلة حتى ادرك الجميع ان سبات القرون الوسطى قد انتهى ، وان سلاح العصور الخوالي وكذلك علوم السلف ، التي انحصرت وتجمدت في مجموعة من المعارف الدينية واللغوية ، ومثلها وسائل الحياة والصناعة والزراعة القديمة ، كلها لم تعد قادرة على مجابهة تحديات الحضارة الجديدة ، ومطامع الغزاة المستعمرين .

وكان في طليعة المدركين للاخطار المحدقة ، عدد ضئيل من الادباء والعلماء وبعض الحكام الذين كانت تحركهم ايضا رغبة شخصية في الاستقلال بحكم البلاد .

وكانت تونس في هذا الوقت ولاية عثمانية يتوارث حكمها أمراء مستعربون ينحدرون من أصل يوناني ، وقد جدهم الاعلى مع الجيش العثماني في القرن الحادي عشر الهجري ، وكان مؤسس حكمهم في تونس هو الحسين بن علي المتولي عام ١١١٧ هجريا ١٧٠٥ ميلاديا . وقد دعيت هذه الاسرة بالحسينية نسبة اليه ،وتلقب افرادها جميعا بلقب الباي لان رئيسهم كانت كذلك في نظام العثمانيين الذين زحفوا على البلاد بعد صراع عنيف مع الغزاة الاسبانيين في القرن العاشر الهجري حيث كان آخر الامراء الحفصيين قد استسلم لاسبانيا وخضع لحمايتها .

وفي عام ١٨٣٧ تولى عرش تونس الباي احمد الاول ، وكان شجاعا طموحا ، ومتأثرا بالحضارة الاوروبية عن طريق أمه الايطالية الاصل ، فأدرك الاخطار المتربصة بالبلاد بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر والانحلال الذي بدا ينتاب كيان الدولة العثمانية ، وكيف انها لم تحرك ساكنا تجاه سقوط الجزائر ، بينما هي ولاية من ولاياتها .

وكان الشعب العربي في تونس قد أخذ يتعرف على مدى ما بلغته اوروبا من تقدم في العلوم والصناعة نتيجة قرب البلاد التونسية من اوروبا من جهة ، وازدياد عدد التجار والخبراء الاوروبيين في تونس من جهة ثانية ، واتساع العلاقات التجارية والبشرية بين الضفتين من جهة ثالثة .

وكل هذه العوامل كانت الحافز المباشر الذي ساعد على النهوض المبكر واليقظة السريعة في القرن الماضي .

وشرع هذا الباي في القيام باصلاحات كبيرة في البلاد ، كان من اهمها في الناحية الاجتماعية اصداره امرا بالغاء الرقيق وعتق جميع العبيد وغلق اسواقها للابد ، مع فرض عقوبات على كل المخالفين لهذا الامر .

وفي الناحية العلمية تأسيسه لمدرسة باردو الحربية عام ١٨٤٠ فكانت النواة الاولى للتعليم الحديث ، ولكل اصلاح اقتصادي وسياسي وعلمي حدث في العقود الموالية ، وكان من ابرز اساتذتها العالم الاديب محمود قبادو الذي كان من دعاة الاصلاح والاخذ بالحضارة الاوروبية ، فزرع أفكاره في تلاميذه الذين قامت عليهم نهضة تونس في كامل النصف الثاني من القرن الماضي .

وفي طليعة هؤلاء بالخصوص الوزير محمد حسين ، والمصلح الكبير خير الدين باشا .

وفي هذه المدرسة حدث اول لقاح علمي بين الثقافة العربية والثقافة الاوروبية في تونس ، فقد قام عدد من تلامذتها وأساتذتها بترجمة أكثر من أربعين كتابا من الفرنسية والايطالية والتركية الى اللغة العربية .

ولئن كان معظم ما تمت ترجمته كتبا عسكرية ، فان بينها كتبا اخرى ، كما ان تعليم اللغات لطلبتها قد اتاح لهم الاطلاع على ثقافة اوروبا بطريقة مباشرة .

وفي الميدان الاقتصادي ، اسس هذا الباي عدة صناعات حديثة ، وجلب عددا من المصانع ، كان معظمها خاصا بصناعة السفن والاسلحة العصرية ، حيث كان يعمل على بناء جيش قوي وأسطول حربي بلغت قطعه اثنتي عشرة باخرة وبارجة كبيرة .

وهذا الباي هو اول من خاطب الخلافة باللغة العربية،اشعارا لها باستقلاله عنها ، وكانت اللغة التركية هي السائدة في المراسلات الرسمية ، وقد أتاح هذا للغة العربية ان تمارس سيادتها الثقافية لا في العلاقات الخارجية فقط ، بل في التعليم والادارة المحلية كذلك .

واذا كان هذا الباي قد أرهق مالية البلاد بنفقاته الحربية وباسرافه في انشاء مدينة المحمدية ، التي كان يحلم بجعلها فرساي تونس ، فانه قد وضع أسسا قوية للنهضة الحديثة في تونس لا يمكن لمؤرخ أو باحث نزيه أن يغفلها أو يقلل من شأنها .

وعندما توفي هذا الباي عام ١٨٥٥ كانت تونس تفكر في تطورات هامة أخرى تم انجازها كلها في عهد خلفه محمد باي وخلفه الصادق باي . ومن أهم هذه الاصلاحات ادخال الطباعة العصرية ، واصدار أول جريدة عربية في تونس ، وهي الثالثة في العالم العربي ، بعد الوقائع المصرية ، والمبشر الجزائريه . ولا ريب ان اخطر ما تم انجازه في تونس خلال القرن ١٩ هو اصدار أول دستور عرف باسم عهد الامان عام ١٨٥٨ ، ثم تكوين مجالس بلدية في نفس السنة . ومجلس الاعيان بعد ذلك .

وحين مات هذا الباي عام ١٨٥٩ وتولى مكانه محمد الصادق باي تعرضت البلاد لهزات عنيفة ، زاد من حدتها تدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد الداخلية وارهاق الشعب بالمظالم والضرائب المجحفة ، وازدياد عدد افراد الجاليات الاجنبية خاصة من الفرنسيين والايطاليين وما كانوا يتمتعون به من نفوذ لدى البلاط وامتيازات في الحياة العامة .

وتعكرت الاوضاع والعلاقات بين الحكومة والشعب بسببسياسة الاستبداد المطلق التي كان يمارسها الباي بواسطة وزيره مصطفى خزنة دار الذي اعتمد هو بدوره عصابة من المجرمين لنهب واغتصاب اموال الشعب ، فلم يكن امام المواطنين ـ والحالة هذه ـ سوى حل واحد هو الثورة فاعلنوها عام ١٨٦٤ بقيادة الزعيم علي بن غذاهم ، وكادت الثورة تجتاح العاصمة ، بعد ان اكتسحت معظم انحاء البلاد ، الا أن تدخلات الدول الاجنبية وأساطيلها المتربصة بسواحل البلاد واساليب الحيلة والغش قد قضت على نجاحات الثورة وزج بقادتها في السجن حيث ماتوا تحت سياط التعذيب والجوع .

واغتنم الباي فرصة انتصاره المزيف ، فعطل الحياة الدستورية وتوسع في اقتراض الاموال الاجنبية ، مما زاد في تعكير الحياة الاقتصادية وعجز ميزان الدولة ، وكانت اموال الشعب تسرق وتنهب الى فرنسا بواسطة مجرمين محترفين . فعادت احوال البلاد الاقتصادية الى التدهور من جديد ، وهجر الفلاحون اراضيهم حتى لا تنهب محاصيلها ، وتظاهر التجار بالفقر وانكمشت الصناعات المحلية وتعالت اصوات التذمر من كل مكان .

وكان زعماء الحركة الاصلاحية ، وفي طليعتهم خير الدين ، قد ابعدوا عن الحياة العامة وفرضت عليهم الاقامة الجبرية ، ومنعوا من الاتصال بالشعب .

ولما أدرك الباي ان سياسته وأعمال وزيره خزنه دار قد قادت البلاد الى الهاوية ، لم يجد مفرا من الالتجاء الى خير الدين لما يعرفه فيه من خبرة ونزاهة ، فاوكل اليه رئاسة الحكومة، فتولاها عام ١٨٧٣ وبقي مدة خمس سنوات حقق فيها المعجزات بالقياس الى ظروف البلاد وتحركات الدول الاجنبية التي كانت تهيىء لنفسها الاستيلاء على تونس ، خاصة فرنسا وايطاليا .

وقد شملت اصلاحاته كافة ميادين الحياة .. وفي طليعتها الحياة الثقافية حيث جدد برامج التعليم في الزيتونة ، وضبط شؤونها بجملة من القوانين كما زاد في خزائن كتبها بما وهبه لهامن كتبه الخاصة ، واسس المعهد الصادقي الذي كان يمكن ان يتحول الى جامعة عصرية لولا سياسة الاستعمار فيما بعد ، كما ارسل البعثات العلمية الى اوروبا ونفخ في صدور الادباء والمصلحين آمالا جديدة ، فنشطت حركة التأليف واحياء التراث ، وتولت المطبعة الرسمية طبع عشرات من الكتب ، كما فتحت جريدة الرائد الرسمية صدرها للمقالات الادبية والسياسية .

وأوقف النزيف المالي في اقتصاد البلاد ، وضرب على أيدي الدول الاجنبية العابثة ، ونظم الادارة على أحدث الطرق ، وأعاد للفلاحين اراضيهم وشجعهم على احيائها ، والزيادة في الانتاج، وعمم غراسة الاشجار ، وخاصة شجر الزيتون وأوجد عددا من الصناعات، ودعم الصناعات المحلية بحمايتها من المزاحمات الاجنبية .

وهكذا اخذت البلاد تنتعش من جديد وتعود اليها آمالها في النهضة والتقدم والرخاء .

ولكن كيف تسكت الدول الاجنبية وعصابة الخونة الذين ضاعت منهم غنائم الحكم الفاسد المستبد ، لا سيما وقد عمد خيرالدين الى محاكمة رأس الفساد الوزير خزنة دار ومصادرة امواله وأملاكه رغم أن بنت خزنة دار كانت زوجة لخير الدين ؟

وفي عام ١٨٧٧ لم يعد امام خير الدين مجال للعمل حيث كثر التصادم بينه وبين الباي ، وحيث نجحت دسائس الاعداء في اقناع الباي بافالته فاعفي من مهامهوفرضت عليه الاقامة الجبرية ، وبعد عام سمح له بالسفر خارج البلاد فاستقر في الآستانة حيث دعي لتولي منصب الصدر الاعظم ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا، لان النظم الفاسدة لا يمكن اصلاحها وانما تترك الى ان تنهار ، كما اشار الى ذلك الجنرال ديفول .

وبعد عامين ونصف من خروج خير الله من تونس ، وقعت البلاد فريسة الغزو والاحتلال الفرنسي ، وتمت بذلك نهاية الصراع الاجنبي على تونس ، وقد فرضت فرنسا وجودها بالحديد والنار ، ونفذت مع الخونة ما كانت تريده وتطمح اليه .

وبين عام ١٨٨١ بداية الاحتلال وعام ١٩٥٦ بداية الاستقلال مرت البلاد تحت الحكم الاستعماري بالمراحل الكبرى التالية :

أولا ـ من عام ١٨٨١ الى بداية الحرب العالمية الاولى .

ثانيا ـ من نهاية الحرب الاولى الى بداية الحرب العالمية الثانية .

ثالثا ـ من نهاية الحرب الثانية الى الاستقلال عام ١٩٥٦ .

وتاريخ الاستعمار الفرنسي لتونس ، معروف في جملته ، ومراحله هي نفس المراحل التي كان لها تأثيرها في قصة الادب التونسي الحديث ، لذا اكتفي بهذه المقدمة التاريخية المقتضبة وانتقل رأسا الى الادب العربي في تونس ، متخذا من كتابهوشعرائه مجالا للقول وميدانا للعرض . وسيكون عرضنا للتعريف والاطلاع أكثر منه للتحليل والنقد ، اذ ان المقام ليس مقام فحص ودراسة وتمحيص ولا هو مقام بحث في التيارات والمذاهب التي مارسها الشعراء والكتاب في تونس او تقلبوا في أحوالها . فان ظروفهم التاريخية بالخصوص كانت تحول بينهم وبين ما قد نطالبهم به من المفاهيم والمقاييس او المذاهب والتيارات التي شاعت في هذا القطر او ذلك الجيل ، من أقطار العالم وأجيال العرب المعاصرين . ومع ذلك ، فاننا لن نبخس شعراء تونس وكتابها مكانتهم الادبية بين أدباء العرب الاخرين ، ولا دورهم التاريخي العظيم في ايقاظ الشعور الوطني ، والمساهمة لا في النهوض الفكري والاجتماعي والاقتصادي لبلادهم فحسب بل وفي تحريرها من كابوس الظلم الملكي أولا والاستعماري ثانيا ، والانحرافات الاخرى ثالثا .

واذا كان لي أن آسف على شيء ، وان أعتذر عن أمر ، فانما هو عن هذا النطاق المحدود الذي لا يسمح بالتعرف علىجميع الشعراء ولا جميع الكتاب . لذلك سأقتصر على عدد قليل منهم ، وعلى نماذج محدودة لهم دون ان يكون في ذلك أية عاطفة خاصة او حكم مسبق .

وبعبارة أخرى انني هنا في موقف التعريف بالادب العربي في تونس ، وليس بالادباء انفسهم ، رغم ما قد يكون من تفاوت في الحديث عن هذا او ذاك ، وفي الاختيارات والاشارات .

## مراحل الادب التونسي

ان مراحل الادب المعاصر في تونس هي اولا مرحلة فجر اليقظة الاولى بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٨١ .

ثانيا ـ مرحلة صدمة الاحتلال وتيقظ الضمير الوطني من عام ١٨٨١ الى الحرب العالمية الاولى .

ثالثا ـ مرحلة الوعي الوطني والثورة الادبية عن نهاية الحرب العالمية الاولى الى الحرب العالمية الثانية .

رابعا ـ مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال من نهاية الحرب الثانية الى اعلان الاستقلال عام ١٩٥٦ .

وتأتي بعد ذلك المرحلة الحاضرة ، مرحلة الاستقلال والحكم الوطني .

وحديثي هنا عن المراحل الاربع السابقة التي تتوجت بالاستقلال

## المرحلة الاولى

ان المرحلة الاولى التي انتهت ببداية الاحتلال الاجنبي عام ١٨٨١ هي المرحلة التي كانت الثقافة فيها ثقافة تقليدية تقوم على برامج التعليم الديني في جامع الزيتونة ، ولم تكن هذه الثقافة لتسمح على ما هي عليه في ذلك الحين من جمود وقصور ـ بظهور أدباء جهيرين ، ذوي أفكار نابغة او تجديد أدبي ، واذا كنا نعثر على قصائد او مقالات تحمل افكارا عصرية ، فان أصحابها في الغالب قد كونوا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يكن لما تعلموه في الزيتونة من اثر يذكر ، اللهم الا من حيث علوم البلاغة واللغة ، اما الادب بفنونه التطبيقية ، فلم يكن له وجود حتى بداية الحرب الاولى .

على أن أدباء هذه المرحلة قد تلقفوا أفكارهم من رحلاتهم الخارجية لا سيما في أوروبا ، ومن المطبوعات الشرقية التي بدأت تصل لتونس من مصر ولبنان كما كانت العلاقات بين تونس وهذين القطرين بالذات وثيقة منتظمة ، بل ان عددا من اللبنانيين والمصريين قد عمل في المؤسسات التونسية وكان بينهم بالخصوص من يقوم بالترجمة ، كما كان فيهم أدباء لهم شانهم في النهضة العربية أمثال أحمد فارس الشدياق ورشيد الدحداح وحمزة فتح الله .

ولست اشك في ان أوضاع تونس المتخلفة في القرن الماضي وما أمتاز به حكم البايات من فساد وظلم واستبداد ، كان هو الاخر محركا ذاتيا كبيرا .

فلا غرابة والحالة تلك ان وجدنا الادباء في هذه المرحلة يطالبون بالشورى ، ويحثون على العدل ، واصلاح الامور ، ونشر العلم والصناعة والاخذ بأسباب التطور ، ومناصرة الذين يعملون على تحقيق هذه الغايات .

ونظرا لظهور الطباعة في تونس عام ١٨٦٠ ، وصدور جريدة الرائد التونسي في العام الموالي أسبوعية اخبارية جامعة ، فان فنا جديدا قد ظهر في الادب المحلي هو الكتابة الصحفية ، ولئن لم تعط ثمارها اليانعة وتتنوع اساليبها ومجالاتها الا في المراحل الموالية ، فانها قد هيأت بداية حسنة للاجيال اللاحقة .

ونكتفي هنا بذكر أهم الادباء والمفكرين الذي تركوا آثارا هامة وكتبا مشهورة الى اليوم ، فضلا عن الشعراء الذين ساهموا بشعرهم او توجيههم للاجيال من بعدهم .

فمن النوع الاول المؤرخ الفذ أحمد بن ابي الضياف المتوفي سنة ١٨٧٤ والذي كان من دعاة الشورى والحرية والتطور ، والذي يشهد كتابه « اتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الامان » بما كان عليه من اصالة ادبية وتحرر فكري ، وشغف بالحرية والديمقراطية والتطور .

ويأتي بعده الجنرال خير الدين ، صاحب كتاب «أقوم المسالك»، الذي هو خلاصة رحلاته في الممالك الاوروبية ، والذي امتازت مقدمته الطويلة بافكاره الاصلاحية ودعوته الجريئة الى ضرورة النهوض العاجل بالبلاد الاسلامية قبل ان يستغل العدو احوالها المفككة ويتمكن من التحكم في مصيرها ، وقد أبانت الايام صدق حدسه ، وغفلة حكام عصره عن الاستماع الى نصائحه . ويليه ايضا العلامة سالم بو حاجب الذي يعتبر المدون الحقيقي لافكار خير الدين حيث كان من اعلام الزيتونة المقتدرين في اللغة والتاريخ بينما كان خير الدين يلقي اليه بأفكاره المستنيرة بثقافته الفرنسية والتركية ، فيصوغها الشيخ بو حاجب في قالب عربي . ولا شك ان كلا منهما قد تأثر بالآخر وتفاعل معه .

ويأتي بعد خير الدين وسالم بوحاجب الجنرال محمد حسين الذي كان احد أقطاب النزعة الاصلاحية في جماعة خير الدين ، وقد ترك رسائل مطبوعة ، أهمها رسالته في تحرير العبيد .

واما محمد بيرم الخامس ( ١٨٤٠ ـ ١٨٨٩ ) فهو شاهد عصره ، وعنوان مجده وفكره ، اذ ترك من الآثار الدالة على مقامه الممتاز بين أقرانه . واذا كان قصير الباع في الشعر على ندرة نظمه له ، فانه لكاتب بارع ، ومؤرخ ذكي ، ورحالة جواب وصحفي مقدر . وله كتب ورسائل عديدة أهمها كتابه : « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » ويقع في خمسة اجزاء ، الف الاول والثاني منها في تركيا ، قبيل احتلال تونس والثالث بعد الاحتلال ، والرابع والخامس بعد استقراره في مصر ، حيث اصدر جريدة عاشت خمسة أعوام . وله رسالة في السياسة الشرعية خاطب بها خليفة عصره السلطان عبدالحميد ناصحا له بالاخذ باسباب التقدم والعلم والحرية والعدل ، وقد ترجمت فور صدورها للفرنسية والانكليزية ، مثلها في ذلك مثل مقدمة كتاب خير الدين السالف الذكر . ومن رعيل هذه المرحلة في سنواتها الاخيرة : الاديب الحصيف محمد السنوسي المتوفي عام ١٩٠٠ والمولود عام ١٨٥٠ . وقد امتاز السنوسي بعلاقاته بالافغاني ومحمد عبده كما امتاز بمناصرته للاصلاح ومقاومة الفساد والاستبداد اولا والاحتلال والاستعمار بعد ذلك ، وكتبه كثيرة متنوعة بعضها مطبوع وبعضها الآخر وهو الاهم ما زال مخطوطا الى اليوم ، ومن اهمها كتاب مجمع الدواوين التونسية ، ورحلته الحجازية . وعلى ذكر هذه الرحلة نقول ان ادب الرحلات قد ازدهر في تونس خلال القرن الماضي ، ففضلا عن الرحالة الكبير محمد بن عمر التونسي المتوفي ( ١٨٥٧ ) صاحب كتاب « تشحيذ الاذهان ، بسيرة بلادالعرب والسودان » . ـ وقد كان الرحالة التونسي من دعائم النهضة الثقافية المصرية في عصر محمد علي ـ فضلا عن هذه الرحلة هناك رحلات اخرى دونها تونسيون اخرون ، وليس كتاب خير الدين « اقوم المسالك » سوى واحد منها ، وكذلك كتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم الخامس المتقدم ذكره ، وكذلك وصف كتبه الجنرال حسين لرحلة الباي محمد الصادق للجزائر عام ١٨٦٠ حيث تقابل مع نابليون الثالث ،والاستطلاعات الباريزية لمحمد السنوسي .

ومن أهم الرحلات في هذا العهد رحلة الشيخ علي الوردائي الى الاندلس وما تضمنته من وصف مفصل للمخطوطات العربية في الاسكوريال .

ومن أدباء هذا العصر او مفكريه على الاصح الشيخ سليمان الحرائري ( المنوفي ١٨٧٧ ) الذي كان اول من دعا الى تعليم المرأة ، وعالج وضعها الاجتماعي في منتصف القرن الماضي ، كما الف في الفلك والعلوم الطبيعية ، وكان يكتب ويؤلف بالعربية والفرنسية، وعاش زهاء الثلاثين سنة الاخيرة من عمره في باريس حيث اصبح استاذا للعربية في معهد اللغات الشرقية ، وترأس تحرير جريدة برجيس باريس مدة ثماني سنوات .

٢ ـ وفي النهاية نذكر استاذهم جميعا الشيخ محمود قبادو ( ١٨١٢ ـ ١٨٧١ ) الذي ترك ديوانا مطبوعا يقع في جزئين وعشرات المقالات والقصائد المطولة الاخرى . فالى هذا الرجل يعود الفضل الاول والدور البارز في غرس بذور الاصلاح في عقول الادباء والحكام والعلماء الذي ظهروا في عصر خير الدين وبينهم خير الدين نفسه حيث كان تلميذه في المدرسة الحربية عام ١٨٤٠ .

ونبدأ الآن ببعض النماذج لهذا العصر وأولها قطعة من قصيدة للشاعر قابادو يحث فيها على العدل ، قائلا :

العدل عهد خلافة الانسان ... ومداد ظل الامن والعمران
وتمدن البشر اقتضى ايلافهم ... بتعاضد من دائن ومدان
والعدل كل العدل يقصر دونه ... رأي اللبيب وفطنة اليقظان
والرأي ان لم يصفعن كيد الهوى ... لم تبد فيه حقائق الاعيان

ومن قصيدة اخرى يحث بها على اخذ العلوم والصناعة من اوروبا لكي ننهض ونحمي كياننا . وهي طويلة نكتفي منها بهذه الابيات :

فمن لم يجس خبرا اوربا وملكها ... ولم يتغلغل في المصانع فهمه
فذاك في كن البلاهة داجن ... وفي مضجع العادات يلهيه حلمه
أيجمل يا اهل الحفيظة انهم ... يبزوننا فخرا . لنا كان فخمه
لقد فاتنا في بادىء الرأي صوبنا ... وأشفى لعمري ان يفوّت ختمه
تباعد شوطا مقدم ومقهقر ... اذا لم يحن منه التفات يزمه
لعمري ليس الميت من أودع الثرى ... ولكن مطيق للفنى بان عدمه
لقد قتلوا دنيا الحياتين خبرة ... فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

ومن شعر محمد بيرم او قل من نظمه المعبر عن نزعته الاصلاحية وغيرته الدينية واخلاصه الكبير لامته وخلافته الاسلامية ، هذا النداء الذي خاطب به المسلمين في عصره ، عام ١٨٧٦ مستنكرا ما هم عليه من تقاعس عن الاخذ باسباب الحضارة والصناعة والمناعة والقوة:

يا امة الاسلام صونوا عزكم ... يتعاضد وتمدن وتنافس
يا امة الاسلام أحيوا ذكركم ... بتآلف وتوادد وتآنس
يا امة الاسلام نموّا صيتكم ... بمعارف وصنائع ومجالس
يا امة الاسلام حوطوا امركم ... بتشاور وتدبر وحوارس
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا ... ان الهلاك مسارع للناعس
يا امة الاسلام زيدوا ثروة ... بتعاون ومصانع ومغارس
يا امة الاسلام شيدوا مجدكم ... بتناصر وتناصح وتجانس

ويقول الشيخ محمد الاصرم المتوفي ١٨٦٠ ، ناصحا الباي احمد الاول بالتزام العدل :

العدل اساس للدوام مصيره ... والظلم بنيان بغير أساس
والنفس تابى ان تضام جبلة ... فاكتل لها ما كلته للناس
والبيت لا يرسي بغير عماده ... فاجمع اذا أوتاده بسياس

اما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجد ، المتوفي عام ١٨٦٨ ، فله قصيدة على طريقة القدماء في الفخر ، منها هذه الابيات :

دعتني الى العلياء همة راغب ... يرى الحزم في الآمال اول واجب
ويخشى مذلات التواني مبادرا ... الى نيل عز فوق هام الشناخب
وما العز الا في اكتساب مآثر ... وما الذل الا في الاماني الكواذب

ومن نثر هذا العصر الذي يمثله المؤرخ احمد ابن أبي الضياف هذه الكلمة الموجزة التي قالها تحية للعلم التونسي حين اتخذ لاول مرة بدلا من العلم العثماني ، ورفعته العساكر عام ١٨٤٠ بمحضر الباي والوزراء وأمراء الالوية وأعيان البلاد ، ولعلها اول نص قيل تحية للعلم في الادب العربي الحديث ، قال ابن ابي الضياف :
« الحمد لله الذي جعل للراية شأنا . وألف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته اخوانا . وعلى حماية وطننا وطاعة أميرنا أعوانا . نفزع لذلك شيوخا وكهولا وشبانا .

ايها الوزراء والامراء، واعيان الكبراء. وحملة السيوف، ورؤساء الصفوف: ان اللواء عماد معلق به الهمة والعرض ، وقدر محبته العشيرة والارض، فلذلك كانت نفرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على اعزازه متعاضدة ، اذ هو مظهر فخرنا وبلادنا تربة آبائنا ومنبت اولادنا ، محوطة بصدورنا من مضرة اضدادنا ، ونفوس الاحرار تموت في رعي الجوار ، احرى في الدفاع عن الوطن والدار ، والاعتماد على الله شعارنا ونعم الشعار».

وواضح من هذه النصوص ، نثرا وشعرا ، ان اصحابها لم يتخلصوا من رواسب السجع القديمة ، وقوالب العروض المألوفة ولكن أفكارها جديدة ، ولغتها نقية ، ومعانيها واضحة بصورة عامة .

## المرحلة الثانية

اما المرحلة الثانية التي بدأت بالاحتلال فانها تعتبر امتدادا لهذه المرحلة وتمهيدا للمرحلة الثالثة ، ففيها من خصائص الاولى ، حفاظها على القديم ، لا سيما في قوالب الشعر وتقاليده ، وفيها ـ مع ذلك ارهاصات للجيل الموالي ، خاصة في النثر .

ومن هذه الارهاصات ، محاولة بعضهم كتابة القصة ، كما فعل الاديب صالح سويسي ، او الخروج بالشعر الى اوزان الموشحات في مواضيع عصرية ، كما فعل الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الخضر حسين . الا ان هذا لم يخلق القصة ولا التجديد في الشعر.

ومع ذلك فقد حدث تطور في النثر ، كنتيجة منطقية لكثرة الصحف وتنوعها ، فبعد ان كانت جريدة « الرائد التونسي » هي الصحيفة الوحيدة لمدة ربع قرن ، ظهرت جريدة الحاضرة عام ١٨٨٨ والزهرة ١٨٨٩ والحقيقة ١٩٠٧ وهي اول جريدة يومية ، وكانت الجرائد السابقة اسبوعية .

ثم ظهرت المجلات لاول مرة ، وكان اولها مجلة السعادة العظمى، عام ١٩٠٤ ، ثم مجلة تحقيق الامل عام ١٩٠٥ ، ثم مجلة خير الدين سنة ١٩٠٦ ، وظهرت الصحف الفكاهية الانتقادية . كذلك العلمية الرصينة ، وقد نتج عن كثرة الصحف وتنوعها ظهور المقالة الادبية والسياسية والاجتماعية ، كما ظهر فن جديد هو المحاضرات التي لم تكن معروفة من قبل ، والتي اطلقوا عليها اسم المسامرات حتى عهد قريب . وكان الشيخ محمد الخضر حسين المولود ١٨٧٦ والمتوفي ١٩٥٨ اول من ألقى محاضرة عمومية بروح وطنية وكان موضوعها دالا عن ظروفها واتجاه صاحبها الاسلامي والوطني معا : فقد كانت تحت عنوان « الحرية في الاسلام » . ورغم ان النشاط الوطني كان في بداية عهده ، فان العاملين فيه كانوا كثيرين ، وكانوا يعبرون عن افكارهم وارآهم بخطبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم ... ومن ابرز الكتاب الصحفيين في هذا العهد علي بوشوشة ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد الجعائبي والهاشمي المكي ، والبشير الفورتي .

اما الكتاب والخطباء السياسيون فابرزهم علي باش حانبة ( ت ١٩١٨ ) وعبدالعزيز الثعالبي ( ت١٩٤٤ ) الذي يعرفه كثير من رجالات الشرق وادباء العراق ، بوجه خاص حيث كان استاذا للفلسفة والتشريع الاسلامي في جامعة آل البيت ببغداد وقد حياه الرصافي بقصيدة بديعة ، مطلعها :

اتونس ان في بغداد قوما ... تشرف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب ... الى من خص منطقهم بضاد
ودين اوضحت للناس قبلا ... نواصع آية سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة اهل قربى ... وان قضت السياسة بالبعاد

اما الشعر ، فقد واصل رسالته الاولى من الدعوة للاصلاح والنهوض بالمجتمع والحث على التعليم والتقدم الاقتصادي وعالج موضوعات جديدة اوحتها له ظروفه الجديدة ، من ذلك دعوته الى احياء اللغة العربية وتطوير طرق تعليمها في الزيتونة كما نادى بذلك الشيخ

الخضر حسين ، واهتم صالح سويسي ( المتوفي ١٩٤١ ) بالجوانب الاخلاقية والدينية ، ودعا الى التمسك بتعاليم الاسلام وندد بتفكك المسلمين وتفسخهم وانحلال عرى الوحدة والتضامن بينهم .

وقد شاركه في هذه العواطف جميع معاصريه من الادباء ، شعراء كانوا ام كتابا ، ذلك ان النزعة الاسلامية كانت هي الغالبة على جميعهم . لهذا كانت الصحافة تولي عناية خاصة لاخبار الدولة العثمانية ، كما اظهر الشعراء ميولا صريحة نحو عاصمة الخلافة ، وتعاطفوا معها في جميع احداثها ، لا سيما مع الحرب الطرابلسية التي هزت مشاعر الجميع ، وبذلوا لها بسخاء .

ويمكن القول بان اساليب الشعر بقيت كما هي ، دون اي تغيير رغم تعدد اغراضه ، ودخوله معمعة الحياة الاجتماعية والسياسية . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وكانت البلاد قد فرضت عليها حالة الحصار ، وعطلت فيها الاحزاب والصحف الوطنية منذ عام ١٩١٢ ، فاستسلم الجميع للركود . حتى اذا انتهت الحرب ، وخرجت منها الدولة العثمانية مهزومة محطمة ، وكان كثيرون ينتظرون انتصارها، خابت الامال في اي نصر او انفراج يأتي من الخارج واصبح متحتما الاعتماد على النفس .

## المرحلة الثالثة

وكان من نتيجة ذلك ان ظهرت النزعة الوطنية التي تتغنى بتونس وحدها وتنادي بتحريرها واستقلالها دون اي ارتباط عاطفي مع دولة اخرى . لكن مشاعر التضامن مع الشعوب العربية بالخصوص ظلت حية واضحة يتغنى بها الشعراء ، ويرددها الكتاب ، لا سيما قضية فلسطين التي اخذت مكان الصدارة من القضايا والموضوعات العربية ، وحل الاهتمام بها محل الاهتمام السابق بالخلافة ومشاكلها المتعددة .

وقد تميزت هذه المرحلة الثالثة بتطورات خطيرة في الادب العربي بتونس . فقد ازداد صلة بالاداب العربية الواردة من المشرق ومن المهاجر الامريكية واصبح في امكان عدد متزايد من الادباء التونسيين ان ينهلوا مباشرة من الثقافة الغربية بعد ان انتشرت الفرنسية بينهم بواسطة الصادقية والمدارس الفرنسية . وكثر احتكاكهم بالجاليات الاوربية التي تجاوز عددها ربع مليون عند انتهاء الحرب الثانية كما اعيدت حرية الاحزاب والصحافة فانطلقت الاقلام تصول وتجول ، وقد نضج فكرها ، واشتد عودها .

وظهر جيل جديد من الادباء ، امتاز بثقافته الادبية العميقة وبافكاره العصرية ، وبثورته الجارفة على الاستعمار ، والرجعية وعلى التقاليد والجمود .

وما كادت سنة ١٩٣٥ تنتهي حتى كان هناك اكثرمن ثورة في الفكر والشعر والمجتمع قد اعلنها شباب الادباء ، وفي طليعتهم سعيد ابو بكر وابو القاسم الشابي ، والطاهر الحداد ، ومحمد البشروش ، وزين العابدين السنوسي ومحمد العريبي ، وعلي الدوعاجي ، والهادي العبيدي ، وبيرم التونسي ، ومحمد البهلي النيال . فقد نبذ هؤلاء لا افكار القدماء فقط ، ولكن نبذوا ايضا اساليبهم فيالتعبير وطرائقهم في طرح القضايا ومعالجة المواضيع .

ورغم ان جميع هؤلاء ـ تقريبا ـ قد تعلموا في الزيتونه ، الا ان الفضل في ثورتهم يعود الى مواهبهم ومطالعاتهم اكثر من اي مصدر آخر .

والحق ان بداية الادب التونسي الحديث التي تتسم بروح العصر وتجسم حقيقته ، قد كانت على ايدي ادباء الثلاثينيات ويكفي دليلا على ذلك ان القصة التونسية قد ولدت من اقلامهم ، وان العمال الكادحين قد كانت حياتهم ومشاكلهم الشغل الشاغل لهذا الجيل من الادباء ، وان المراة قد بلغ دفاعهم عن حقوقها وحريتها بل وعن مساواتها التامة بالرجل حد الاستشهاد من اجلها .

ولئن حاول مجاراتهم في بعض ما ذهبوا اليه جيل الادباء المخضرمين الذين عاشوا المرحلة السابقة الا انهم لم يبلغوا شاوهمرغم ما كان للمخضرمين من المكانة المرموقة في المجتمع ، والنفوذالادبيفي الحياة الثقافية .

واعظم ما سجله التاريخ لجيل المخضرمين ، امثال محمد الشاذلي خزنه دار ومصطفى آغه وصالح سوليسي ، وبلحسن بن شعبان وحسين الجزيري .... اعظم ما سجله التاريخ لهؤلاء هو وطنيتهم الصادقة ودفاعهم عن المناضلين السياسيين والقضايا الوطنية عامة .

ولكنهم فيما عدا ذلك بقوا سجناء التقاليد ، مجرورين دائما الى الوراء

ونعود الى جماعة الثورة او دعاة الجديد ، فنرى زعيمهم الشابي يقف عام ١٩٢٥ مع العمال في كفاحهم ، ويهتف بانتصار الشعب حين لم تكن هناك بارقة امل واحدة تنبيء بذلك ، فقد زج بقائدهم محمد علي في السجن ، وحكم عليه بعشر سنوات يقضيها في المنفى بعيدا عن ارض الوطن . ومع ذلك نرى الشابي يقول :

ان ذا عصر ظلمة غير اني ... من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن ... سترد الحياة يوما وشاحه

وقال قبل ذلك ، مشيرا الى ما لقيه محمد علي من اضطهاد وارهاق وكبت :

كلما قام في البلاد خطيب ... موقظ شعبه يريد صلاحه
اخذوا صوته الالهي بالعسـ ... ـف ، اماتوا صداحه ونواحه
البسوا روحه قميص اضطهاد ... فاتك ، شائك يرد جماحه

ويعبر في نهاية القصيدة نفسها عن روح الصمود والتضحية ، والاصرار على الكفاح حتى النصر او الاستشهاد من اجل الوطن فيقول :

انا يا تونس الجميلة في لج ... الهوى قد سبحت اي سباحه
شرعتي حبك العميق واني ... تذوقت مره وقراحه
لا ابالي وان اريقت دمائي ... فدماء العشاق دوما مباحه

وكان الشابي حين كتب هذه القصيدة في السابعة عشرة من عمره وفي نفس السنة قال قصائد اخرى عن حركة محمد علي ، واعلن عن اتجاهه الاجتماعي في الابيات التالية :

لا انظم الشعر ارجو ... به رضا الامير
بمدحة او رثاء ... تهدى لرب السرير
حسبي اذا قلت شعرا ... ان يرتضيه ضميري

* * *

ما الشعر الا فضاء ... يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي ... وما يسر المعالي
وما يثير شعوري ... من خافقات خيالي

وقد استمر الشابي حتى آخر لحظة من حياته ـ ثابتا على منهاجه ذاك .. فما مدح او تزلف او تكسب بشعره قط .

وفي عام ١٩٢٩ ، اي عندما بلغ الشابي العشرين من عمره ، نشر كتابه « الخيال الشعري عند العرب » بعد ان القاه بشكل محاضرة ، فاحدث ثورة ادبية هائلة ضد جميع المفاهيم والاساليب والمناهجالسائدة في الادب العربي يومئذ فتصدت له الرجعية الادبية وكان نفوها كبيرا ، في الحياة الثقافية والاجتماعية ، ولكن ثورة الشابي وافكاره قد كتب لها الانتصار اخر الامر ، لان الشابي كان يمثل المستقبل المرجو للوطن وللادب العربي معا .

ولان الشابي وجيله كانوا يحملون اعباء التحرر الفكري والاجتماعي الذي هو اساس كل نهضة وكل تقدم .

واليكم هذه العبارة القصيرة التي جعلها الشابي شعارا لكتابه بل لثورته :

« لقد اصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ، ملؤها العزم والشباب ، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ، اما من يعبد امسه وينسى غده فهو من ابناء الموت وانضاء القبور الساخرة . » !!

ويمكننا ان نؤكد ان كتاب الشابي فضلا عن ثورته الادبية كان طليعة ثورة سياسية واجتماعية قادت البلاد في المراحل الموالية من مجتمع القرون الوسطى الى مجتمع العصر الحديث .

وكمثل الشابي في صدق المبادي وثورة الفكر، كان رفاقه الاخرون وخاصة منهم حبيب العمال ونصير المرأة شهيد الفكر الحر المرحوم الطاهر الحداد .

فهذا الاديب المناضل هو الوحيد بين كل ادباء تونس الذي نشا في مجتمع الكادحين ، وانقطع لهم ، وسخر مواهبه ووقته وحياته من اجلهم واذا كنتم تعرفون الكثير عن الشابي ، فان الحداد لا يكاد يعرفه احد ، حتى في موطنه الاصلي ومسقط رأسه .

واذا كان الشابي مهجريا في اسلوبه شعرا ونثرا فان الحداد اجتماعي واقعي في كليهما . وهو في النثر كاتب ممتاز ، اما شعره فعواطفه الحارة ومعانيه الصادقة وموضوعاته الحية تغطى اسلوبه التقليدي واحتذاءه للاقدمين .

والحداد الذي مات صغيرا كالشابي ، وبعده بعام واحد اي في عام ١٩٣٥ وعمره ستة وثلاثون عاما ، يمكن اعتباره مفكرا اجتماعيا من طراز خاص . وعلى حد قول السيد عز الدين بلحاج الذي تعرف اليه شخصيا : فان الحداد ، في تاريخ الفكر العربي بتونس ، يأتي بعد العلامه ابن خلدون مباشرة .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عنه باكثر من ذلك ، ولكني اضيف : انه كان القلم الكاتب واللسان الناطق والتاريخ المدون للحركة العمالية التي قادها محمد علي ، فعندما ابعد محمد علي عن البلاد، سجل الحداد اعماله كلها مضافا اليها محاكمته ورفاقه ، مع صورة حية عن مجتمع العمال التونسيين ومشاكلهم ، مقرونة بافكار الحداد الاقتصادية والاجتماعية الاشتراكية في كتابه العظيم « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي نشره عام ١٩٢٧ فصادرته سلطات الاستعمار فور صدوره . وعندها التفت الى النصف الاخر المشلول من الشعب بعد العمال ، اعني الى المرأة ، فتعمق اوضاعها الاجتماعية والتشريعية فكانت حصيلة ذلك كتابا كاملا دعاه باسم « امراتنا في الشريعة والمجتمع » وقد تفوق فيه على جميع دعاة تحرير المرأة في العالم العربي من قاسم امين ونظيرة زين الدين الى الرصافي والزهاوي وغيرهما . ويكفي ان نشير هنا الى انه قد قسم كتابه الى قسمين قسم تشريعي واخر اجتماعي ، فعالج في الاول مكانة المرأة في الشريعة الاسلامية . وخلاصة آرائه في هذا القسم التشريعي ان الاسلام قد حرر المرأة ورفع منزلتها ، وان الحقوق التي اعطاها الاسلام للمرأة انما كان يريدان يمهد بها الى المساواة التامة التي هي غاية مقصودة ضمنا في التشريع الاسلامي ولكن الرجال لم يعطوا ذلك التطور فقط بل ارجعوا المرأة الى الوراء ، وحرموها من ممارسة كثير من الحقوق التي خولتها لها الشريعة الاسلامية .

اما القسم الاجتماعي فهو وثيقة تاريخية هامة عن اوضاع المرأة العربية في عام ١٩٣٠ وهو العام الذي صدر فيه كتابه العظيم .

اما نزعته الوطنية وآراؤه الحرة في الاسلام والتطور والحضارة العصرية ، فنكتفي بشواهد قليلة من شعره عنها . يقول بعنوان ايها الشعب :

ايها الشعب . قم للمجد مقتحما ... حرب الحياة ، فلا عز بلا نصب
هذا زمان يموت الجاهلون به ... والخانعون بلا حد لمغتصب
قوم .. قد انكرونا في كرامتنا ... وجاهرونا بنجوى الامس في الحجب
قالوا خليط بلا جنس مواطنهم ... ارض محللة مبتورة النسب
قالوا : حمايتنا اضحت مفوقة ... لديهم عن هدى الاسلام.. واعجبي!
لقد اهانوا ، وليس المسلمين فقط ... بل الحقيقة والتاريخ بالكذب

الى ان يقول :

ياشعب تونس، ياشعب المجادة لو ... وعيت ماضيك المسطور لم تهب
خلقت للموت في حفظ الكرامة لا ... للجبن ، تلبسه عارا مع الحقب

وفي قصيدة اخرى يقول :

لا تصدق يا شعب ان رقى الغر ... ب كفير يبدد المسلمينا
امة الغرب لا تزال لعيسى ... وبموسى وبوذا اليابان في المؤمنينا
وبموسى اليهود زادوا ارتباطا ... بعد نيل العلى مع السابقينا
كلهم في تمدن العصر فازوا ... لم يصبهم في الدين ما يعترينا
افهل كان دين احمد يخشى ... دون كل الاديان في العالمينا

اما سعيد ابو بكر المتوفي ١٩٤٨ فيمكن اعتباره من مدرسة الحداد في دفاعه عن المرأة ، وتصويره لمآسي حياتها في المجتمع ، واهتمامه بالمحرومين والتعساء من اخوانه المواطنين ، مع محاولاته ان يسير على منوال المدرسة المهجرية في قوالبه الشعرية ، واعتماده بالخصوص على اوزان الموشحات للتعبير عن اغراضه الاجتماعية ، الا انه كان ضعيفا في ثقافته الادبية والشعرية بوجه خاص ، فجاء شعره ضعيف النسج متوسط المباني وديوانه « السعيديات » ، ثم مجموعته « الزهرات » وثيقتان تاريخيتان للحياة الاجتماعية والسياسية في عصره اكثر منهما اعمالا ادبية خالدة .

وفي ميدان القصة يعتبر الدوعاجي المتوفي عام ١٩٤٩ رائدها الاكبر ومؤسسها الحقيقي ، لا تكنيكيا وموضوعيا فحسب بل فنيا وابداعيا وتاريخيا .

اما زين العابدين السنوسي الذي ولد في نفس العام الذي مات فيه والده محمد السنوسي المتقدم ذكره ، فانه كان كاتبا رائدا في كل ما عالجه من مواضيع ، وانجزه من اعمال ثقافية وصحفية كبيرة . ونحن وكل الدارسين لادب هذه المرحلة مدينون له بما تركه حين مات عام ١٩٦٤ من آثار جليلة اهمها مجلته العالم الادبي وكتابه عن الادب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري ومنشوراته الكثيرة الاخرى . وهو اول من جعل مجلته واسطة فكرية بين المشرق والمغرب ، كما كانت نافذة مفتوحة على الثقافات العالمية .

ولا نستطيع ان نترك الحديث عن ادباء بين الحربين دون ان نقول كلمة عن شاعر آخر من رعيل الثائرين المجددين ، وان اختلف عنهم في منزعه الاجتماعي وطريقته الشعرية .. لكنه يمثل اتجاها جديدا لا على الاجيال السابقة فقط بل والاجيال الموالية كذلك .

وهذا الشاعر هو محمد العربي الجزائري الاصل والمولد الذي ولد عام ١٩١٥ ومات منتحرا في باريس ليلة عيد الميلاد عام ١٩٤٦ وهو من طراز بودلير والياس ابو شبكة ومن المتاثرين بهما مباشرة خاصة ببودلير ، حيث ترجم بعض اشعاره وحيث عاش حياة بوهيمية متحررة مثله .

يقول من قصيدة له عنوانها « الملال » :

مللت العقل والدينا ... فهات الكاس واسقينا
وغن" فالغنا سلوى ... وبعث للمنى فينا
وهيا نرفع الكاس ... على نخب المصلينا
على نخب التقي فيهم ... على نخب الهوى فينا

* * *

شربنا الخمر للسلوى ... فما للخمر تشجينا
وما للعود قد اضحى ... لصحرا الحزن يحدونا

فلا الالحان تنسينا ولا الخمر تسلينا

الى ان يقول

مللنا جسمك الناري مللنا صدرك الناهد
مللنا لحمك الوردي مللنا حبنا الفاسد

وينهي قصيدته صارخا هكذا :

دعيني اعتزل نفسي امزق ستر احساسي
فاقطف لعنة الرب واحصد لعنة الناس
واضحك اذ ارى نحسي يعانق شامخ الياس

ويقول في احد مقطوعاته

عيناك ملؤهما ندم عيناك ملؤهما نغم
نغم الشرهة والهوى ندم الطهارة والالم
عيناك خدرتا همو مي ، فبت ليلي بدون هم
عيناك بحر من رؤى عيناك قسوة منتقم

وله قصيدة عن صديقته او عشيقته المومس ، قدمها اليها باهداء هذا نصه « اليك يا ابنة الاثم ارفع هاته الصلاة القصيرة » . ثم استهلها قائلا :

صدقيني .. هل انت الا ملاك نزل الارض رحمة بالبريه
عانقيني .. كيما يزول شعوري بوجودي في ذي الحياة الشقية
زوديني بقبلة منك اخرى فهي ذكرى حياتنا القدسيه
انت .. ما انت غير رمز حنان انت نور الاله في ذي البريه
انت ضحيت نفسك اليوم كما تسعدي الناس . ثم انت شقيه

ومن هذه المقتطفات من شعر العربي يتبين انه لو اضاف الى موهبته الشعرية ، وحساسيته المفرطة ثقافة ادبية عميقة وصناعة عروضية متقنة ، لكان في مكانته وشاعريته من مستوى الشابي مع احتفاظ كل منهما بطابعه الخاص ومميزاته الادبية والاجتماعية

## المرحلة الرابعة

وبوفاة محمد العربي عام ١٩٤٦ نكون قد طوينا المرحلة الثالثة، مرحلة بين الحربين العالميتين ، ووصلنا الى المرحلة الرابعة ، التي اطلقنا عليها مرحلة الحصاد الوطني ومعارك الاستقلال ، ذلك ان البذور التي زرعها جيل المرحلتين الاولى والثانية ، والنضال الذي قاده زعماء وابطال المراحل السابقة ، قد بدأ يعطي مردوده في نفوس المواطنين وفي حياتهم من تطور ويقظة ، ومن انتفاضات اجتماعية وثقافية ووطنية حتى اذا انتهت الحرب العالمية الثانية ، وقدكانت تونسمن ميادينها ، وعانت من ويلاتها وشرورها ما هو فوق طاقتها ، عادت البلاد ترزح في كلاكل الاستعمار من جديد ، وقد شتت الاعداء شمل زعمائها وخلعوا عن العرش اول واخر ملك من البايات ، اخلص لبلاده في عهد الحماية والحكم الاجنبي . وساد القمع وتضاعف النضال حتى كانت الثورة المسلحة وكان الاستقلال عام ١٩٥٦ ثم الجلاء عام ١٩٦٣ ، وكان الادب خلال هذه المرحلة القصيرة التي لا تتجاوز عشر سنوات في حدها الادنى وخمسة عشر عاما في حدها الاعلى .. كان الادب ، ادب نضال وجهاد وتحرر ودفاع عن حقوق الشعب وسيادة البلاد .

ولئن لم يكن انتاج هذه المرحلة من الوفرة والتنوع مثلما هو الشان في المرحلة السابقة ، الا انه كان يمتاز بكثرة الادباء المساهمين فيه وبينهم عدد كبير من اجيال المرحلتين الثانية والثالثة امثال حسين الجزيري والشاذلي خزنه دار ، وزين العابدين السنوسي ، وابي الحسن ابن شعبان ، ومحمد سعيد الخلصي ، والهادي المدني والهادي العبيدي ومحمد المرزوقيواحمد خيرالدين والعربيالكباديوسعيد ابوبكر ومصطفى خريف والصادق مازبغ . وهناك اسماء اخرى حديثة لمعت في عالم الادب وبينهم جيل من الشباب لم تتح له الفرصة الكافية ليظهر مواهبه الكامنة كلها ، وليعطي مرحلته التاريخية طابعه ومميزاته. ذلك ان ظروف الحرب قد استمرت اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا من عام ١٩٤٥ حتى اندلاع الثورة في عام ١٩٥٢ وهكذا كان وقته قصيرا ، ومساهمته محدودة ، ومع ذلك فاننا نجد الوانا جديدة من الانتاج الادبي وتطورا عميقا في بعض انواعه الادبية ، واتصالا وثيقا بالثقافات الاجنبية خاصة الفرنسية ، تبعا لتطور البلاد الثقافي،ولظهورجيلجديد من الادباء المزدوجي اللغة امثال محمود المسعدي ، وعبدالوهاب بكير، ومحسن بين حميدة واحمداللغماني،وتوفيق بوغدير فضلاعنجيلالزيتونة من شباب الادباء امثال محمد العروسي المطوي واحمد المختار الوزير، العربى ، ومحمد المرزوقي .

اما من حيث مظاهر الانتاج فان مجلة المباحث التي صدرت شهرية بين اعوام ٤٤ و ١٩٤٨ تعتبر المرآة الاولى لادب هذه المرحلة ، وبعدها تاتي مجلات الثريا ، والاسبوع ، والصريح ، والندوة ، فضلا عن الاذاعة التي اصبح لها دور رئيسي منذ تاسيسها عام ١٩٣٨ في ابراز المواهب الجديدة ، وفي تنشيط الحياة الادبية .

ولعل اهم ما تميز به نثر هذه المرحلة هو الخطابة السياسية والاجتماعية ثم ادب المقالة بانواعها ، والقصة بالوانها لا سيما القصيرة وكذلك المسرحيات ، ثم الترجمة والنقل من الادب العالمي الى اللغة العربية .

اما الشعر فقد حافظ على اوضاعه السابقة ، لدى شعراء الجيل السابق ، وكان بينهم بالخصوص شعراء يحترفون المديح ، واشكال الشعر القديمة .

اما جيل الشباب فانه كان الصق بالمجتمع وادق تعبيرا وتصويرا لحياة الشعب وآلامه وامانيه .

وعلى يد هذا الشباب ولد الشعر الحر في نفس الوقت ـ تقريبا ـ الذي تمت ولادته في العراق ، ولست ازعم لهم السبق ، ولكن المعروف ان نماذج كثيرة من الشعر المتحرر من قواعد العامود ، بل وحتى من قواعد العروض ، قد عرفت بين ادباء الثلاثينيات ، لا سيما عند الشابي والبشروش ومحمد العربي ومصطفى خريف . اما جيل هذه المرحلة ، فان محمد العروسي المطوي ، وابو القاسم محمد كرو ، ومحمد العربي صمادح واخوه منور ، ثم محسن بن حميده ، وفريد غازي واحمد اللغماني كانوا ـ على تفاوت شاعريتهم ـ طليعة هذا الشعر ، واسوق لكم نموذجا واحدا من قصيدة كتبها العروسي المطوى بعنوان : « عيد ابن السجين » :

ابى ...
هل تعود
ويبزغ في البيت نجم السعود ؟
فقد طال منا انتظار الصباح
وعود البشير بجنى الكفاح
وعهد الخلاص
فحتام نبقى ـ وانت البعيد ـ
قلوب حيارى ، وشمل بديد
ابي .
هل عيد بكل مكان
وغرّد في الكون طير الحنان
وعم السرور
سوى اهل بيتك لا يمرحون ؟

اما الشاعر محمد العربي صمادح ، فيتحدث عن الرحيل قائلا :
عبير الورد اشذاه

اريد المسير
ولكن ... لمن ؟
فجر الهجير
بكف الزمن
كلفح السعير

* *

وافبل يحمل في راحتيه
ازاهير ضاحكة في يديه
يغازلها السحر من مقلتيه
فسار ، ...
وسرت ..
ولكن لمن ؟..
فهل سيبوح بذاك الزمن ؟

اما الشاعر محمد الشاذلي خزنه دار ، المتوفي ١٩٥٤ فيرثي سبعة من الشهداء ضحايا الاستعمار بقصيدة ، نقتطف منها الابيات التالية :

ابكي لفرقتهم وهم احياء — سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان في كفي الحسام وانما — من تحت فكي حية رقطاء
ارسلتها حصبا على مقتالهم — فتريه ماذا يفعل الشعراء
ساهز من قومي الذين بلوتهم — ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية الاحساس في نخواتها — لله تلك النخوة العربياء

ويتحدث الشاعر العاطفي محمود بورقيبة المتوفي ١٩٥٦ عن غراميات صباه فيقول من قصيدة عنوانها « لصوصية الحب » :

دائما اذكر ايام صبانا — حين عاطانا الهوى حتى انتشينا
حيث فوق العشب دشنا منانا — وعلى النخب شربنا وارتوينا

حيث كاللصين كنا نلتقي — نسرق الحب وقد نام الرقيب
وبغطينا جناح الغسق — فاذا الدنيا حبيب وحبيب

واذا الاشجار تولينا الحنان — فتغطينا باوراق الغصون
فاذا العالم سحر وافتنان — واذا الكون التذاذ وجنون

هكذا كنا لصوصا في الغرام — نتوارى في سكون واحتراس
نتلافى تحت استار الظلام — حيث يحلو في هوانا الاختلاس

ومن هذا القبيل قوله

قالوا لها يبغون اغضابها — مضناك قد خان عهود الوداد
في كل يوم عنده صبوة — وكل حين زينب او سعاد
قالت : دعوه ، انه شاعر — من شانه التهيام في كل واد

وللشاعر الوجداني الرقيق احمد المختار الوزير ، قصيدة بعنوان « الله » يقول فيها :

الا لا تسالي عني — وعن شعري وذكراه
فما شعري سوى قلبي — وذاك الحب ملهاه
غريرا كنت لا ادري — ضليلا كنت ، ويلاه !!
صباحي الثملة الظمأى — .. وليلي السكر نشواه
اضعت العمر لا ادري — مواضيه واخراه
.. افقت اليوم من سكري — ومن غيّي وبلواه
ولكني على صحوي — شديد الشوق اذكاه
عذيري في لظى شوقي — جمال بت ارعاه
جمال دونه سحرا — ضياء الفجر اسناه
جمال دونه عطرا — عبير الورد اشذاه
جمال دونه طهرا — صفاء الماء انقاه
جمال الله يا لهفي — جلا في القلب معناه

* * *

ويقول الشاعر احمد اللغماني ـ وهو من ابناء واحات النخيل بجنوب تونس الشرقي ـ يقول وقد رأى باحدى قرى ساحل الشمال التونسي، نخلتين وحيدتين ترتعشان في يوم شتاء واعصار :

جذعان قاما هنا في مسربي — قذفتهما الواحات مغتربان
جذعان بل روحان من بلدي هنا — في هذه الاصقاع معتنقان
روحان في هذا العراء تغربا — وبهذه الاهوال يشتجران
القاكما ـ يا صاحبيّ ـ فالتقي — بالذكريات منيرة ادجاني
القاكما ـ يا صاحبي ـ بمهجة — ميالة لكما وقلب حان
نحن الثلاثة ههنا في غربة — قذفت بنا الواحات للنسيان
نزحت بنا الاقدار عن جناتنا — مهد النخيل ومسرح الغزلان

اما الشاعر المرحوم مصطفى خريف المتوفي ١٩٦٧ فيتغنى بامجادنا، ويهتف بوحدتنا في قصيدة طويلة ، اكتفي بمقطع منها وهو خاتمة المطاف :

ايهذا العيد ، يا رمز الوفا — يا سراجا في الدجى يا كوكبا
يا رجا الامال في وحدتنا — نحن ان اظللتنا لن نغلبا
يا نهارا فاخرت ساعاته — بجليل الامر ، مرحى ، مرحبا
انت فتح ، انت نصر ، انت من — دوحة الرضوان غصن شربا

عدلنا يا عيد عودا احمدا — فزت يا عيد ، ونلت الاربا
.. ايهذا العيد بوركت فخذ — قالة من شعب خضراء الربى
خذ من الريف ومن فاس وخذ — من تلمسان ، وعم المغربا
خذ الى المشرق ايات الولا — خذ الى العرب سلاما طيبا

**ابو القاسم محمد كرو**

---

## مصادر البحث :


١ ـ الادب التونسي في القرن الرابع عشر : لزين العابدين السنوسي
٢ ـ الحركة الادبية والفكرية في تونس لمحمد الفاضل بن عاشور
٣ ـ هذه تونس : للدكتور حبيب تامر
٤ ـ تاريخ ابن ابي الضياف
٥ ـ بيرم الخماس ، للزين السنوسي
٦ ـ محمود قابادو ، للزين السنوسي
٧ ـ مجموعة الدواوين المطبوعة لكثير من الشعراء التونسيين
٨ ـ عدد كبير من المجلات والصحف التونسية
٩ ـ وثائق خطية في مكتبتي
١٠ ـ مجموعة كتبي المطبوعة عن الادباء التونسيين ،مثل الحداد، الشابي ، كرباكه ..